ألمانيا بين نيتشه وهتلر

« دين القوة »

الأستاذ عبد المجيد نافع

حين أوشكت صحيفة القرن التاسع عشر أن تطوى نشرت فى أوربا راية دين جديد ، ذلك هو دين القوة ، وكان حامل لوائه بل رسوله المبشر به هو الفيلسوف الألماني فريد رش نيتشه

على أنّا نحب أن نبدد وهماً قد يعلق بالأذهان ، فنسارع إلى القول بأن عبادة القوة والإيمان بأثرها الحاسم فى حياة الأفراد والشعوب ، دين قديم جديد ، اعتنقته الإنسانية فى كل مراحل التاريخ من غير أن تجهر به ، فكبدها كل ما أنفقت من دموع ودماء

وفى الحق أنك لو جردت الإنسان من طلاء المدنية ، ذلك الطلاء الذى هو بمثابة القشرة الخارجية التى يصطنعها ليخفى تحتها أطماعه تارة ، وضعفه طوراً ، لتبدّى فى ثياب الإنسان الأول بكل ما فيه من مظاهر الوحشية والهمجية والقسوة

والحق للقوة — كلمة قالها بسمارك الألمانى رجل الدم والحديد. ولو أن النمسا لم يعقد بلواءه فى حروبه مع الدانمرك والنمسا وفرنسا لنادى بأن الحق فوق القوة . ولو أن القوة حالت بين هتلر وبين أن يزدرد النمسا ، ويثنى على ازدرادها بتشيكوسلوفاكيا لملأ فمه بكلمات العدالة والحق والمساواة والحرية

ولكن نيتشه ، رسول القوة ، يتفرد بأمور : منها أنه صبغ الدين الجديد بالصبغة الفلسفية ، ورسم له الحدود والمعالم ، ودعمه بأسانيد الواقع والتاريخ . ولعله يتميز بين جبابرة العقول وحملة لواء الفكر الإنسانى ، بصراحته الوحشية التى مزقت قناع الرياء عن وجه الإنسان

ولا نحسب أن مفكراً طبع العصر الحديث ، فى الغرب ، بطابعه الفكرى ، مثل نيتشه . وإذا كان ماكيافيلى أستاذ كثير من السياسيين ، فإن نيتشه أستاذ الدكتاتوريين ، وخاصة زعيم النازية

نعم ، هو ملهم النازيين ومهبط وحيهم ، هتف بدين القوة والسلطان ، وتلقف زعماء ألمانيا الحديثة تعاليمه ، فأفرغوها فى قوالب التطبيق العملى ، غير متأثمين ولا متحرجين ، إذا كان تطبيقها يجرح شعور العدالة ، أو يثير الضمير الإنسانى

كان صاحب دعوة القوة يحمل على الديمقراطية حملاته الشعواء بدعوى أنها من أقوى مظاهر الانحطاط والانحلال فى أوربا العصرية ، وكذلك يذهب دعاة النازية هذا المذهب . فما كادت ألمانيا تنسحب من عصبة الأمم فى عام ١٩٣٣ حتى قال هتلر ، فى أعقاب ذلك الانسحاب ، لبعض صحبه : « لن تعود ألمانيا إلى عصبة الأمم الديمقراطية بحال . فقد دبت فيها عوامل الفساد ، وقضت عليها الديمقراطية بالفناء والدمار »

وينادى زعماء النازى بأن ألمانيا تهيئ الجو لانقلاب جديد ، وأن على العالم أن يمشى تحت رايتها . وكان المبشر بدين القوة ، بعد أن ظن أنه حطم أصنام الأوهام الموروثة من دين وعلم وفلسفة وفن وأخلاق وديمقراطية ، وأقام على أنقاضها القيم الأخلاقية الصحيحة ، واكتشف الإنسان الأعلى ، أنه قد مهد الطريق لظهور الإنسانية الجديدة البريئة من شوائب الضعف والانحلال المرتكزة على دعائم القوة والسلطان

وأسر الفوهرر إلى بعض رفاقه أنه على تمام الأهبة لأن يضع توقيعه على أى اتفاق ، ويضمن أية حدود ، ويمضى ميثاق عدم اعتداء مع كائن من كان ، على أن ينقض كل أولئك ، فى دم بارد وضمير جامد ، إذا اقتضته قوة ألمانيا وعظمتها . وجاهر رسول القوة بأن الضعيف يبتغى السلام والوفاق والمساواة والحرية ، لا يشرئب بآماله إلا إلى الاحتفاظ بذاته . ولكن القوى يؤثر أن يثير المشكلات وعظائم الأمور . الضعيف يضمر الكيد فحسب ؛ فأما القوى فيهجم غير وان ولا متردد ، فإن القوة التى تفيض بها جوانب نفسه تحفزه إلى التوثب والانقضاض

وأعمل نيتشه معاوله حتى ظن أنه نقض القيم الأخلاقية من أساسها . فالشفقة لديه بغيضة لأنها من أخلاق العبيد ، والقسوة فى عرفه مرضية لأنها من أخلاق السادة . تلك شرعة الضعفاء وهذه شريعة الأقوياء . ولا يتحرج من أن يجهر بأن الشفقة هى فضيلة المومس ، وينادى مع شاعر الأساطير الشمالية القديمة :

« إن فوتان (كبير الآلهة فى تلك الأساطير) قد وضع فى صدرى قلباً قاسياً » . ثم يهتف : « من الواجب عليك القسوة . فمن هذا الطريق وحده يسمو الإنسان إلى أعلى حيث يقابله البرق ويحطمه : فلترتفع إلى البرق ارتفاعاً كافياً » . ذلك بأنه يرى أن القسوة أعظم شىء يفضى إلى تقوية الإنسان وترويضه على ملاقاة الأخطار ، وشحذ همته للنهوض بجلائل الأعمال ، على حين لا شىء أخطر على المجتمع من الرحمة بالضعفاء والعاجزين ، إذ تنهض عقبة فى سبيل قانون الانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح . فنواميس الطبيعة تقضى بإبادة الكائنات الضعيفة وإفنائها من الوجود . وأما نحن فنتحدى قوانين التطور ، ونعمل على أن نحيل العالم إلى ملجأ الضعفاء والعاجزين .

ومن ذا الذى تداخله أثارة من الشك فى أن هذا ما يدين به جماعة النازى ؟ أرأيت كيف نكلوا برفاقهم فى الجهاد يوم قاموا بعملية التطهير بين صفوفهم فى عام ١٩٣٤ حين زعموا أنهم وقد اختمرت فى رؤوسهم فكرة الجريمة ، أخذوا يديرون فى الظلام ومن خلف الأستار مؤامرة واسعة النطاق ترمى إلى هدم نظام الحكم النازى ، وتحت ستار هذه الدعوى أجهزوا على طائفة من رؤوسهم وفى طليعتهم رويهم ؛ وكذلك لم يبقوا على شليخر وزوجه !

وهل أتاك حديث الجستابو وما يجرى من أعمال القسوة فى معسكرات الاعتقال التى تضم الخصوم السياسيين الذين يظن فيهم أو يلمح من ثنايا حركاتهم أنهم يعتزمون الانتقاض على حكم النازى ؟

ثم هل جاءتك أنباء تنكيلهم بكل من يحاول كسر القيود من الأمم التى غلبوها على أمرها وأخضعوها لحكمهم عنوة واقتداراً؟

ويبرر أولئك الدكتاتوريون قسوتهم بأن سلامة الدولة قبل كل شىء وفوق كل اعتبار

ويتخذ النازيون العنف عقيدة ويعدون الرحمة خوراً فى الطبيعة ويؤمنون بالقوة إيماناً عميقاً ، القوة الخالية من شوائب الشفقة والرحمة ، المتجردة من هواجس الضمير ومن عوامل الضعف الإنسانى ، القوة التى تذهب إلى حدود الوحشية أحياناً ؛ فإذا وقف الضمير فى وجه القوة ، وعاق نهوضها إلى الأمام ، كان ذلك آية على الضعف والانحلال ، ومظهراً من مظاهر انحطاط الفرد والجماعة

وفى كتابه « كفاحى » لا يكتم زعيم الريخ الثالث ازدراءه لما تواضع الناس على أنه رحمة ، وما اصطلحوا على أنه إنسانية .

ويدين جماعة النازى بالمبدأ القائل : بأن « الحرب الدائمة » هى حالة المجتمع الإنسانى فى المستقبل ، وأن على كل أمة أن تعد لها العدة ، وأن تتنكر للسلام ، ولا تتجهم للحرب . فالسلام يقتل حيوية الأمم ، فأما الحرب فتغذى تلك الحيوية ، ولا يجنح للأول إلا الأمم المترفة المستسلمة ، ولا ينزع لخوض غمرات الثانية إلا الذين يفيضون بالقوة والعزة . فألمانيا تبتغى « تقسيم العالم من جديد » كما يقول وزير دعايتها جوبلز . لا ، بل يزعم فيلسوف النازية روزنبرج أن الشعب الألمانى خلق للسيادة ، ولا مندوحة عن أن يبسط سلطانه على العالم ، ليهيىء حضارة أعلى

وفى سبيل فرض السيادة على الدنيا يرى القابضون على مصاير ألمانيا أن لا بد لها من التسلط على المستعمرات والطرق الرئيسية للبحار

وتطوف بأحلام النازيين خيالات غريبة ، وتصور لهم أوهامهم ما لا يمكن أن يتعلق به أمل ، فتراهم يقولون إن مأساة مونيخ قد كشفت عن ضعف انجلترا وشيخوختها ، وأن لا بد لهم من إسعاف انجلترا ، وتحطيم الامبراطورية البريطانية ، تلك الامبراطورية التى قال عنها كبيرهم أدولف هتلر وهو يحلق فى أجواء الخيال : « إن الإمبراطورية البريطانية تمثال ضخم هائل يقوم على رجلين من طين »

فأما فرنسا فيجمح الخيال بزعماء النازى فيقولون عنها إنها « أمة تحتضر » فلا يقام لها فى ميدان الصراع الدولى وزن أو اعتبار !

ولسوف تصدم الحقائق زعماء النازى صدمات قاسية أليمة ، وتوقظهم من أحلامهم إيقاظاً خشناً ، وإذ ذاك يعلمون إلى أعماق أية هوة ساقوا بلادهم !

ولعلهم حين تساورهم الأحلام فيتعلقون بأهداب تلك الأمانى الباطلة يؤمنون فى أعماق نفوسهم بقول الفوهرر : « إن كل

أكذوبة يمكن أن تساغ وتهضم ، على شرط أن تكون من الضخامة بمكان »

وليس يطمح الريخ الثالث فى أن : « يتخذ له مكاناً ليعيش فيه » وإنما يتشبث بالأمانى الكاذبة فتجمح به القوة الناشمة إلى حد الطموح إلى ضم الدنيا بأسرها تحت علم الصليب المعقوف ! والسياسة العنصرية التى طبعت تصرفات حكومة النازى إنما هى منبعثة عن تلك العقيدة الخاطئة وهى أن العنصر الآرى قد خلق للسيادة بينما خلقت العناصر السامية للعبودية !

وترى النازيين ينفخون تلك الروح فى شبابهم ، ويملأون بها جوانب نفوسهم فينادى نشيد الشبيبة الهتلرية :

« اليوم تملك ألمانيا ، وفى غد تملك العالم بأسره »

والآن فمن الذى أضرم نيران المطامع فى نفوس الألمان حتى أشعلوا نار الحرب الحاضرة ؟ إن الذى أجج تلك الروح إنما هو داعية دين القوة ، والمبشر بالإنسان الأعلى ، فريدرش نيتشه

لقد تروعك مبادئه وتعاليمه ، بل لقد تهولك قسوته وعنفه ، ولكن لا مفر من إجالة الفكر فى تلك التعاليم والمبادئ إن كنت تبغى مواجهة الحقائق مهما كانت قاسية وأليمة ، وكنت تريد أن تعلم من هو موقد نيران الحرب الحاضرة ، ومشعل الحرب العالمية من قبل

يذهب نيتشه إلى أن من أقوى الدلائل على الخور والاستسلام الذى أصاب المدنية فى القرن التاسع عشر ، وتفشى بين صفوف الشعوب ، تحمسهم خلف ما يسمونه السلام الدائم ، وتذرعهم بما يدعونه الإنسانية التى هى أنشودة الضعفاء ، ورمز الانحلال ، وعنوان الاضمحلال ؛ لأن الحرب الدائمة ، على ما فيها من كوارث وويلات هى الحالة الضرورية لنهضة الأفراد والشعوب .

ويذهب الفيلسوف الهدام إلى أن الغريزة التى تسير الإنسان وتطبع كافة تصرفاته ، إنما هى غريزة حب السيطرة ، وإرادة القوة . وعنده أن الخير هو كل ما يعلو فى الإنسان بشعور القوة وإرادة القوة ، والقوة نفسها ؛ وأن الشر كل ما يصدر عن الضعف ، وأن السعادة فى الشعور بأن القوة تنمو وتزيد ، وأن لا رضى ، بل قوة أكثر وأكثر ، ولا سلام مطلقاً بل حرباً ، ولا فضيلة بل مهارة ، وأن الضعفاء العجزة يجب أن يفنوا ، وأن هذا هو أول مبدأ من مبادئ حبنا للانسانية ، وأن أشد الرذائل ضرراً إنما هى الشفقة على الضعفاء العاجزين .

وينادى نيتشه بأن مذهب داروين فى « تنازع البقاء » مذهب باطل ، فليست الحياة تنازع البقاء ، وإنما هى تنازع القوة وتنازع السيطرة . وما تاريخ الإنسانية إلا سلسلة متصلة الحلقات من تنازع السلطان والغلبة والقوة بين السادة وبين العبيد . فأما العبيد فيخترعون قيماً أخلاقية لا غاية لهم منها إلا إخضاع السادة لهم عن طريقها ، وإن هى إلا أسلحة مسمومة يستخدمونها رجاء أن يتحرروا من نير سادتهم ، ثم الطمع فى السيطرة عليهم بمجرد زوال سلطانهم .

ويذهب ذاك الذى لا يؤمن إلا بالقوة إلى أن الضعيف يريد السلام والوفاق والحرية والمساواة ، لا يبتغى من الدنيا شيئاً إلا الاحتفاظ بالبقاء . ولكن القوى يؤثر أن يخوض غمار المشكلات ، ويواجه العواصف والأهوال غير وجل ولا هياب ، ويشرئب بآماله إلى تسنم الذروة ، وبلوغ المظيم من الأمور . الضعيف لا يرضى أن يخاطر بشىء ، فأما القوى فيغامر بكل شىء ، إذ أن حياته كلها عواصف وأخطار ، بل يبذل له نيتشه النصح أن « يعيش فى خطر » فذاك هو المبدأ الذى يكفل له الاحتفاظ بكل مظاهر القوة

ويبشر نيتشه بظهور الإنسان الأعلى . ولكن كيف السبيل إلى ظهوره حتى ينهض بالانسانية من كبوتها ، ويقيل العالم من عثاره . السبيل أن يؤمن الناس بالأرستقراطية والتميز ، ويكفروا بالديمقراطية والمساواة ! فبين الكيف والكم خصومة عنيفة . فأما الأول فينادى بالتفرقة وينكر المساواة ، ويؤمن بالفرد ولا يعنيه شىء من المجموع باعتباره مجموع وحدات متساوية ، فالكومة المكدسة من الرمال لا تساوى كلها أكثر مما تساويه حبة رمل واحدة . فأما الكم فكل شىء عنده سواء ، يريد أن يخرج الناس جميعاً فى صورة واحدة ، ويطبق عليهم مقياساً واحداً . فصيحته « المساواة ! المساواة » وشعاره « نحن جميعاً متساوون ! وليس هناك أناس أعلى من أناس ! » وترى أصحاب الكم يتحدثون عن « الأغلبية » و « المجموع » و « أكبر عدد ممكن » حتى

انحطت الحياة فى جميع مظاهرها إذ أصبحت السيادة والسلطان للدهماء على أصحاب الرؤوس المفكرة والشخصيات الخصبة الممتازة

فأى عجب وتلك تعاليم نيتشة التى تشبع بها جماعة النازى ، أن نسمع كبيرهم أدولف هتلر يقول عن أعضاء مجلس الريشستاج : « لست أدرى كيف يعهد بإدارة السياسة العليا للدولة لقطيع من الخراف رؤوسها خاوية »

بل كيف نعجب من إشعالهم لنيران الحرب الحاضرة وإلهابهم الشعوب ، إذا كان أستاذهم نيتشه ينادى بأن الإنسان الأعلى رجل نضال دائم من أجل السيطرة والغزو والظفر ، لا يعنيه إلا أن يسير نحو الغاية التى رسمها لنفسه ، وأن أبغض شىء إليه السلام ، والحرب عنده أقدس شىء

وإذا أنت اطلعت على رأى نيتشه فى القيم الأخلاقية لم تدهش لتصرفات بنى قومه فى أى بلد اجتاحوه . فعنده أن الضعيف يسمى العجز « إحساناً وطيبة » ويسمى عدم القدرة على الانتقام والأخذ بالثأر : « صبراً » ويسمى حاجته إلى الآخرين وقصوره عن الاعتماد على نفسه : « رحمة » ويسمى عجزه عن إدراك المطامع السامية والغايات العالية : « تواضعاً » . فأما الأقوياء فيسمون الأشياء بأسمائها ولا يبتغون إلا الظفر والانتصار وتحطيم كل من يقف فى سبيل تحقيق آمالهم السامية فى الحياة غير حافلين بدموع تسكب ، أو دماء تسفك ، لأن قلوبهم الصخرية ، وعواطفهم المتحجرة ، تملأها المطامع والغايات ، ولا تجد الرحمة إليها سبيلاً

ولعلك تسأل عن السر فى مغاضبة النازية للمسيحية وإرهاقهم لدعاتها ، وتنكيلهم بهم أحياناً ؛ وعندنا أنه لا كتشاف هذا السر ينبغى أن نقول لك : « فتش عن نيتشه » . فحملته الشعواء على دين عيسى ، ورميه هذا الدين بالضعف والانحلال الذى أصاب أوربا فى زعمه إبان القرن التاسع عشر ، كل أولئك حمل دعاة النازية على أن يعملوا كى تقفر جوانب نفوس الألمان من تلك العقيدة التى تدعو للسلام والرحمة وبذلك تجر للضعف والاستسلام وهم شعب الله المختار الذى خلق لسيادة الدنيا فى غير ضعف أو تخاذل !

ولا تحسبن الألمان يتكلون ببنى إسرائيل اعتقاداً منهم بأنهم سبب نكبتهم وباعث هزيمتهم فى الحرب العظمى . فاليهود فى نظر نيتشه هم أول من قاموا بثورة العبيد ، وهم الذين حاربوا السادة حرباً لا هوادة فيها ، وأذّنوا فى الناس بأخلاق العبيد لتكون سبيلهم إلى التسلط على السادة . وكذلك كانوا يوم قاموا فى وجه روما . وهكذا فعلوا حين أشاعوا فى الناس أخلاق الضعف والجبن والعجز والخور تحت أستار الحرية والمساواة !

* * *

والآن أرجو أن أقول إن الذى أوحى إلىّ بهذا البحث هو الكتاب القيم الممتع الذى وضعه عن « نيتشه » صديق العالم الشاب الأستاذ عبد الرحمن بدوى . وإن أسلوبه الحار الملتهب ، وعباراته التى تنبض بالحياة فى كل موطن ، وإلمامه الشائق بحياة نيتشه ومبادئه وتعاليمه ، وتبسيطه لمبادئ الفلسفة الجافة حتى تسيغها العقول والنفوس ، وطريقته فى عرض الآراء وبسطها ، كل أولئك قد أغرانى بأن ألتهمه التهاماً فأحببت أن أغرى الشبان بمشاركتى فى هذا المتاع العقلى .

عبد الحميد نافع

صدر كتاب :

وحى الرسالة

فصول فى الأدب والفن والسياسة والاجتماع

بقلم

احمد حسن الزيات

وهو يقع فى زهاء خمسمائة صفحة من القطع المتوسط

وثمنه ٢٥ قرشا

ويطلب من مجلة الرسالة ومن جميع المكاتب الشهيرة